التدين الأندلسي
أُنموذجا للتعايش الحضاري مع الآخر

الدكتور محمـد لمقـــدم
تخصص الفقه وأصوله
المغرب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين سيدنا ونبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، ونذيراً وبشيراً للناس أجمعين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

وجد المسلمون في الأندلس، البلد الجديد، اختلافات أعمق وأشد –لا يمكن بحال من الأحوال مقارنتها بالهجرات السابقة، كهجرتهم إلى المدينة– وفروقا ومستجدات مست جميع الأصعدة والنواحي: اللغة والاقتصاد والجغرافيا والسياسة وشعوب النصارى، الذين وجدوهم فرقا دينية متناحرة، وكذلك الشأن بالنسبة لليهود.

كل هذا أثر في طبيعة المجتمع الأندلسي، فقد حاول المسلمون التعايش والاندماج مع هذا الواقع الجديد، ومراعاة أحواله وإيجاد طرق ووسائل تمكنهم من التكيف والتأقلم معه، وهذا كان سببا في ظهور حركة اجتهادية لإيجاد فقه يلائم هذه البيئة الجديدة، ويواكب حياة المسلمين فيها، ويعالج قضاياهم الواقعية والمصلحية، وقد كان لزاما على المسلمين هناك تأسيس رؤية ثقافية على أساس الشريعة، وضرورة انبعاث دور العقل في الاجتهاد والنظر، للتكيف مع العالم الجديد، ومعالجة مشكلاته.

وهكذا ظهر فقهاء وفلاسفة ومفكرون وعلماء، فنتج بذلك ثراء فقهي وفكري وعلمي غير مسبوق.

فكان الفقه الأندلسي النموذج الأمثل في التعامل مع الواقع، فهو يعتبر فقه وقائع ونوازل بامتياز، لأنه عبارة عن تطبيقات تأثرت بالبيئة الجديدة، لهذا اختلف عن المشرق؛ لأن الفقه الأندلسي لم يهتم بالجانب العملي فقط بل اهتم بالجانب الفكري والفلسفي في الفتوى أيضا وأعاره اهتماما كبيرا، فجل الفقهاء في الأندلس اطلعوا على الفلسفة، والفقيه الأندلسي عرف الفلسفة ومختلف اتجاهاتها الفكرية وحاول أن يمزج ذلك بالفقه مما يدل على الغنى والثراء، وهذا ما جعله يدخل في حوارات دينية مع مكونات المجتمع الذي يعيش فيه، والانخراط في مناظرات وسجالات فكرية مع التيارات الأخرى، كابن رشد الفقيه المالكي والفيلسوف العقلاني، الذي دخل في حوار مع الفيلسوف والطبيب اليهودي ابن ميمون.

إن المسلمين أسسوا حضارة عظيمة في الأندلس، تجلت في انتشار العلوم والفن والعمران، فضلاً عن الزراعة والري والصناعة والهندسة المعمارية، مما جعل البلاد آنذاك مركز إشعاع فكري وحضاري وثقافي انعكس أثره على معظم بلاد أوروبا. هذا الأمر أدى إلى خلق نوع من التبادل العلمي والمعرفي بين شعوب العالم أجمع، هذا الفضل يعود بكل تأكيد إلى الإسلام الذي كان تأثيره جلياً وواضحاً على علماء أهل الذمة من يهود ونصارى، ولا يمكن تجاهله على الرغم من بعض الكتابات الغربية الحديثة والمعاصرة، التي تحاول طمس تلك الحقبة الذهبية من تاريخ الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس، فهذه الحقبة قد استوعبت الآخر وعملت على خلق مجتمع متعايش.

الفصل الأول: الأندلس ومجتمعها

المبحث الأول: نبذة عن الأندلس

المطلب الأول: سبب تسمية الأندلس، وأول من سكنها

قال ياقوت الحموي: "الأَنْدُلُس: يقال بضم الدال وفتحها، وضم الدال ليس إلّا: وهي كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام، وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام، وقد استعمل حذفهما في شعر ينسب إلى بعض العرب، فقال عند ذلك:

سألت القوم عن أنس؟ فقالوا: ... بأندلس، وأندلس بعيد"((1))

وجاء في نفح الطيب: "قال ابن سعيد: إنّما سميت بأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح، لأنّه نزلها، كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها، وإليه تنسب سبتة. قال: وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي، لأنّهم إمّا عرب أو متعربون.

وقال ابن غالب: "إنّه أندلس بن يافث، والله تعالى أعلم."((2))

"وقيل إن أوّل من نزل الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلش (بشين معجمة)؛ فسميت بهم الأندلس (بالسين غير معجمة). وقيل إنهم كانوا مجوساً، فأراد الله قلعهم منها، فحبس المطر عنهم حتى غاضت مياههم وعيونهم وأنهارهم، وخرجوا منها، وافترقوا في البلاد، وأقامت خالية مائة سنة، من حدّ إفرنجة إلى البحر، ثمّ دخلها بعد ذلك قومٌ من الأفارقة، أجلاهم صاحب إفريقية من الجوع، فلما نزلوا الأندلس، وجدوا أنهارها قد جرت، فملكوها نحو مائة وخمسين سنة. وعدد ملوكهم أحد عشر ملكا، ودار ملكهم مدينة طالفة، ثم غلبت عليهم الإسبانية، حتى أخرجوهم عن الملك، وصار الملك إليهم؛ وبهم سميت إشبيلية؛ فبنوها وسكنوها؛ وخربت طالقة. وهجم عجم رومة، فكانوا ملوكا، حتى دخل البشترلقات على الرومانيين، وقد بعث الله المسيح – عليه السلام – فبعث الحواريين إلى البلدان كلها، وظهر دين النصرانية وغلب. ثم كان دخول البشترلقات من رومة. وكانوا يملكون إفرنجة، ويبعثون عمالهم إليها. ودار ملكهم ماردة؛ فكانت عدَّة ملوكهم سبعة وعشرين ملكا.

ثم ظهر بإشبيلية إشبان، وكان رجلا ضعيفا حرَّاثا، فوقف به الخضر – عليه السلام– وهو يحرث، فقال له: (إذا تغلبت على إيلياء، فأرفق بأولاد الأنبياء!) فقال له: (كيف يكون هذا، وأنا ضعيف، من غير بيت ملك؟). فقال له: (يُقدر ذلك من قدَّر في عصاك ما قدَّر!). فلما نظر إلى عصاه، إذا بها قد أورقتن ففزع، وغاب عنه الخضر. ووقع ذلك بنفس إشبان؛ فلم يزل يصطنع الرجال حتى علا اسمه، وشاع ذكره، وتغلب على الأندلس؛ فخرج في السفن إلى ايلياء؛ فغنمها وهدمها، وقتل فيها مائة ألف من اليهود، وباع منهم مائة ألف، وانتقل رخامها إلى الأندلس. وكان ملكه نحو عشرين سنة، وبعد سنتين من ملكه، غزا إيلياء. ويقال إن إشبان اسمه إصبهان، لأنه ولد بإصبهان؛ فسمى بها، والله أعلم. فعدة ملوكهم خمسة وخمسون ملكاً.

ثم دخل القوط الأندلس، وقطع الله ملك رومة منها. وعدة ملوك القوطيين ستَّة عشر ملكا، آخرهم لذريق، الذي دخل عليه المسلمون"((3)).

والأندلس تسمى الآن اسبانيا والبرتغال، أو ما يسمى بشبه الجزيرة الأيبيرية.

المطلب الثاني: جغرافيا الأندلس

أطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة الأندلس على شبه الجزيرة الأيبيرية، وهذه الجزيرة في الإقليم الخامس والرابع إلى المغرب، ومعظم الأندلس تقع في الإقليم الخامس ومنها في الرابع كإشبيلية، وملقاة، وقرطبة، وغرناطة والمرية ومرسية، والأندلس آخر المعمور في

المغرب، لأنها متصلة ببحر أقيانس الأعظم، الذي لا عمارة وراءه((4)).

وتقع شـــبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) في قارة أوروبا، وتحديدا في الجنوب الغربي من القارة، وتوجد في الجنوب ســـلســـلة جبال (البورتات) التي تفصله عن الجنوب الفرنسي((5)).

أما عن تضـــاريس الأندلس ومناخها، فيقول الشـــيخ أحمد بن محمد بن موســـى الرازي: "والأندلس أندلســـان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها: أندلس غربي، وأندلس شـــرقي، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي، وتمطر بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشـــرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شـــنتمريّة طالعاً إلى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومجاوراً للبحر المتوســـط الموازي لقرطاجنّة الحلفاء التـــــي من بلد لورقة، والحوز الشـــرقي المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية، وهو من حدّ جبل البشكنس، هابطاً مع وادي إبره إلى بلد شنت مرية، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوســـط الخارج إلى بلد الشـــام، وهو البحر المسمّى ببحر تيران، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض، ويسمى البحر الكبير"((6))

وقد وصف الحميـــــري في الروض المعطار الأندلس بقوله: "والأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جناتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"((7)).

المطلب الثالث: فتح الأندلس

لا يمكن الحديث عن فتح الأندلس بمعزل عن بقية حروب التحرير التي خاضـــها المســـلمون في ســـبيل إعلاء كلمة الله، ونقل رســـالة السماء إلى الشعوب المضطهدة التي كانت ترزح تحت نيـــــران القوى الأجنبية كالفرس والبيزنطيين. فلقد كان للمسلمين غاية نبيلة في الفتوح تمثلت في تحرير الشعوب الأخرى من الجهل والوثنية والتسلط الأجنبي، ثم في نشر قيم ومثل الحضارة الإنسانية التـــــي أنارت الدرب لهذه الشعوب، وساعدت على امتزاج الثقافات، والتجارب والخبرات، خدمة للبشرية جمعاء. ولقد نجح العرب في شمال أفريقيا –كما نجحوا في غيرها من الأماكن– في كسب سكان البلاد الأصليين، أي البربر، إلى جانبهم، ووحد الإسلام بين الإثنين، فأصبحوا قوة كبيـــرة في المنطقة. واعتمد العرب اعتماداً كبيـــراً على البربر، لا سيما في عهد الوالي موسى بن نصير، حيث عهد إلى زعماء من البربر بقيادة الجيوش الإسلامية التـــــي استمرت تؤدي رسالتها في استكمال تحرير شمال أفريقيا. وبفضل هذا التعاون الفعال استطاع المسلمون أن يحققوا فتح الأندلس((8))، سنة 92 هـ بقيادة طارق بن زياد((9)).

وقد ذهب ابن حزم في رسـالته حول فضـل الأندلس إلى أنّ فاتحي الأندلس هم الجماعة الثانية المعنية في حديث الرسـول صـلى الله عليه وسلم التي بشر بها ومدحها وأثنى عليها خيرًا، حيث قال: وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشَّر به، ووصـف أسـلافنا المجاهدين فيه، بصـفات الملوك على الأسـرة، في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان، زوج أبي الوليد عبادة ابن الصـامت، رضـي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين، حدثته به عن النبي صـلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك لكفى شرفاً بذلك((10))، يَسُرُّ عاجله ويغبط آجله((11)).

المبحث الثاني: مكونات المجتمع الأندلسي بعد الفتح

شهدت بلاد الأندلس بعد الفتح الإسلامي توافد أجناس مختلفة تفاعلت مع السكان الأصليين، فزادت في تنوعها العرقي والديني، كونت بعد ذلك مجتمعا متعايشا، تحت مظلة حكم المسلمين، وفيما يأتي بيان مكونات المجتمع الأندلسي:

المطلب الأول: العرب

دخل العرب الأندلس في شكل موجات من الجنود عرفت بالطوالع، كان أولها طالعة موسى بن نصير،"فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، في سفن صنعها خصيصا لذلك، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان، وذلك في رمضان سنة 93 هـ (يونيه سنة 712 م)"((12)).

أما الطالعة الثانية فجاءت مع الحر ابن عبد الرحمن، في أربعمائة رجل من وجوه إفريقية، وكان قدوم الحر الأندلس ســـنة 99 من الهجرة((13)).

وفي ركاب جيش بلج بن بشر دخلت الطالعة الثالثة وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام سنة 123 في ذي القعدة منها((14)).

وآخر الطوالع هي طالعة أبي الخطار حســـام بن ضـــرار الكلبي، ومعه ثلاثون رجلا ســـنة 125هـــــ، وهي الطالعة الثانية من الشاميين((15)).

"لم يقتصر دخول العرب على هذه الطوالع فقط، بل توافدوا عليها فرادى وجماعات في عهد الدولة الأموية التـــي شجعتهم على المجيء، ومع ذلك فإن عددهم لم يكن كثيرًا.

وليس لدينا من الوثائق ما نتمكن به من تقدير نسبة العرب في مئات السنين الثماني التي دام فيها سلطان الإسلام بإسبانية، ولكنَّ سير الأمور يدل على أن العرب، بعد انفصال إسبانية عن خلافة المشرق، كانوا يعتمدون في بقائهم في إسبانية على تناسلهم، بل توالد العرب وسكان إسبانية الأصليون أيضًا، فكان العرب يتزوجون النصرانيات على الخصوص، فيُمِدُّون بذلك دوائر حريمهم ويُديمون بذلك نسلهم، هؤلاء النصرانيات كنّ من مختلف الأجناس، تجري في عروقهن الدم الإيبري واللاتيني واليوناني والقوطي وغير ذلك"((16)).

المطلب الثاني: البربر

ولى موســـى بن نصـــير طارق بن زياد على قيادة الجيش الإســـلامي المتجه إلى فتح بلاد الأندلس، لأنه جمع بين التقوى والورع والكفاءة الحربية والجهاد في ســبيل الله والرغبة في أن يموت في ســبيل الله، وهو بربري ليس بعربي، وقد قدمه موســى بن نصــير على العرب لما له من الكفاءة والفضـل، ثم إن طارق بن زياد لكونه كان من البربر يسـتطيع أن يقود البربر، فليس هناك أي موانع نفسـية لديه تجاه الإسلام، ثم إنه يفهم لغة البربر ويتقن الحديث باللغة العربية((17)).

عبر الجيش بقيادة طارق بن زياد مضيق جبل طارق سنة 92 من الهجرة، وكان اجتمع لطارق اثنا عشر ألفا من البربر((18))، وقد تواصلت هجراتهم صوب الأندلس بعد ذلك. والمعروف أن استقرار البربر بالأندلس جاء نتيجة امتزاج تاريخي من أربع مجموعات.

فبالإضافة إلى المجموعة الأولى التـي تعود إلى أيام الفتوح الأولى للأندلس، فتتمثل المجموعة الثانية في المجموعة التي استقدمها المنصور بن أبي عامر للخدمة في الجيش، وفي هذا الصـــدد يقول ابن عذارى: "وأذل قبائل الأندلس بإجازة البربر، وأخمل بهم أولائك الأعلام الأكابر؛ فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور"((19)).

في حين تتمثل الثالثة: في صـــنهاجة اللثام الذين لبوا دعوة ملوك الطوائف لردع الخطر النصـــراني، فأنزلوا قبائلهم في المدن والثغور((20)). إلى جانب الفئات السـابقة الذكر يضـاف إليها فئة رابعة: تتشـكل من بربر العدوة الذين تدفقوا على الأندلس خلال العصر المرابطي((21)).

ولعل ما نلاحظه عن تواجد البربر في الأندلس أن تعدادهم كان في تزايد مستمر. وهذا ما نستنتجه من تحديد ابن الخطيب نسبة البربر إلى الأندلس في أول المائة الخامسة بنصف معشار أو أقل((22)).

وحقيقة الأمر أن المســـلمين الأول الذين دخلوا البلاد، عربا وبربرا... قد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم جدا في انتشـــار الإســـلام في

الأندلس، فإن البربري قريب جدا من حيث المزاج والطبع –والأصل أيضا– من أهل البلاد الأصليين، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرون الأرياف منهم، فامتزجوا بهم دون تكلف. ثم إن البربر لم يعرفوا عصبية الجنس[...] وكانوا شديدي الحماس للإسلام، فكان الإسلام بالنسبة إليهم رمز سيادة، فأظهروا العصبية له، واجتهدوا في نشره، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التي انبثت في نواحي البلاد من أكبر العوامل التي تحول أهلها إلى الإسلام((23)).

لقد رصدت لنا المعلومات المتناثرة بين المصادر أن البربر الأوائل اندمجوا في المجتمع الأندلسي، أما المتأخرون والذين كانوا في الأساس جنودا فقد كانوا أقل اندماجا في المجتمع.

المطلب الثالث: المولدون

المسلمون المولَّدون من تزاوج العرب بالبربر، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة، وكان لذلك سبب كبير، وهو أن الجيش الفاتح كان من الرجال النازحين من الشرق الذين قطعوا مسافات بعيدة حتى وصلوا إلى الأندلس، فكان طبيعيًّا ألا يرحل معهم عدد كبير من النساء، فاضطرتهم الحاجة إلى أن يتزوَّجوا من الإسبانيات أو من البربر ويستولدوهن. وقد خرج من هذا الازدواج بين عربي وبربرية، أو عربي وإسبانية جيل جديد مولَّد، يشبه ما كان في الشرق من تزاوج بين عربي وفارسية، وقد عرف المولدون من النساء الإسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال، وكان لهم في تاريخ الأندلس تاريخ طويل((24)).

وروى مؤرخو العرب أن العرب تزوَّجوا في بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية، ولا يزال يُرى في قصر أشبيلية رَدْهَةٌ تُدعى ردهة الصبايا اللائي كان النصارى يُلزمون بتقديم مائة منهن إلى أحد ملوك العرب في كل سنة كجزية، فنحن إذا ما رأينا أن هؤلاء النصرانيات كنّ من مختلف الأجناس، وأنه كان يجري في عروقهن الدم الإيبري واللاتيني واليوناني والقوطي ... وغير ذلك، علمنا أنه نشأ عن توالد النصارى والبربر والعرب، الذي دام في بيئةٍ واحدة قرونًا كثيرة، عِرق جديد مختلف عن العروق التي فتحت إسبانية اختلافا بَيِّنا((25)).

المطلب الرابع: النصارى

نصارى الأندلس تسميهم الوثائق المسيحية بالمستعربين كانوا يؤلفون إبان الفتح الإسلامي للأندلس أغلب سكانه((26))، "ويمكن القول إن العرب الفاتحين قد أظهروا كثيرا من الحكمة والعدل في ممارسة الحكم في الأندلس فقد كان للمسيحيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم، وعُيِّن لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف، وأصبح سكان المدن لا يُكلَّفون إلا الجزية والخراج – إن كانت لهم أرض تزرع– بعد أن كانوا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تُنفَق على الدولة، وكانت الجزية متدرجة على حسب منزلة المطالبين بها، فكانت تبتدئ من اثني عشر درهمًا إلى ثمانية وأربعين في العام، أو من نحو ثلاثة جنيهات إلى اثني عشر، وقد قُسمت اثني عشر قسطًا، يُجبَى قسط في كل شهر للتخفيف عن الرعية، أما ضريبة الأراضي التي كانت تتفاوت على حسب قدرة إنتاج الأرض، فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعًا، ولم يكن المسيحيون على أسوأ الفروض ملزمين دفع ضرائب أكثر مما كان يدفع جيرانهم المسلمون، على أنهم قد ظفِروا بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرين على نقل ملكية أراضيهم لغيرهم، أما التسامح الديني فلم يدع للإسبانيين سببًا للشكوى، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود.

وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضي المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على

حكم الإفرنج أو القوط"((27)).

وتقلد النصارى في عصر الإمارة المناصب العليا فتولوا شؤون الدواوين ولم يتعرضوا لأية مضايقات تذكر رغم حركة العصيان التي قاموا بها في القرن الثالث الهجري ((28)).

أما في عصر الخلافة فإننا نجد من النصارى من وصل في عهد "عبد الرحمن الثالث" إلى العمل في القصر، ولعل ما وصل إليه "عريب بن سعد" المعروف سابقا باسم –برشموند– لدليل على ذلك حيث كتب هذا الأخير "لعبد الرحمن الثالث" التقويم القرطبي المشهور، وقام بشغل عدة وظائف دبلوماسية في "جرمانيا "وبيزنطة،" وكوفئ بتولية أسقفية البيرة ((29)).

المطلب الخامس: اليهود

إن الحديث عن اليهود في الأندلس على عهد الدولة الإسلامية يتطلب منا العودة إلى العهود الأولى لتواجدها في الأندلس. فالمعروف أن اليهود يرجع وجودهم في المنطقة إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي، "في العهد القوطي خاصة، في هذا العهد برز دورهم إذ كانوا يتصدرون بعض الأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة غير أن القوط عادة ما كانوا يكنون لهم الكراهية بسبب اختلاف عقيدتهم، وبسبب تعاملهم بالربا، فتعرضوا لكثير من المضايقات"((30)).

ويضيف الدكتور أحمد الظاهري : لقد تواجد اليهود في المجتمع (الاسباني) قبل الفتح العربي الإسلامي يعملون في المجال الاقتصادي ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل يعانون أشد ألوان الجور والاضطهاد وكانت الكنيسة منذ أن اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة فأجبروا على اعتناق النصرانية أو النفي من البلاد او المصادرة، فأعتنق النصرانية عدد منهم كرها أو رياء، ولما اشتدت الضغوط على اليهود حاولوا أن يديروا مؤامرة للقضاء على الحكم القائم إلا أن المؤامرة اكتشفت فزاد الضغط على اليهود وانتزعت أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية وشردوا وقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى وأن ينتزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على النصرانية((31)).

كان من أثر اضطهاد القوط لليهود أن رحبوا بقيام الدولة الإسلامية في الأندلس؛ لأن الحكومات الإسلامية قد جنحت إلى التسامح مع غير المسلمين، بل إن هذه الحكومات قد استخدمت من اليهود الكثيرين، وظفروا بالمناصب العالية والنفوذ الواسع((32)). وحسبنا في ذلك ما وصل إليه اليهود في بعض الإمارات الطائفية كإمارة غرناطة التي أصبحوا فيها أصحاب الحل والعقد ((33)).

وقد استقر اليهود في مختلف المدن الأندلسية، ويبدو أن عددا قليلا منهم قد استقر في البوادي بحكم ابتعادهم عن العمل الزراعي وتعاطيهم كليا للتجارة، وعلى هذا الأساس كان تمركزهم أكثر بالمدن المعروفة آنذاك كمحطات تجارية، أو الواقعة في طرق تجارة العبور وأهمها "غرناطة" التي كانت تعرف باسم " غرناطة اليهود" لأن نازليها من اليهود ((34)).

المطلب السادس: الصقالبة

يعرف ابن منظور الصقلاب بأنه: الرجل الأبيض وقيل الأحمر ويشير إلى الصقالبة بأنهم "حمر الألوان، صهب الشعور، يتاخمون الخزر وبعض جبال الروم ((35)).

ويعرف السيوطي الصقالبة بقوله: الصقالبة جمع مفرده صقلب، وصقلبي بفتح أوله وسكون القاف آخره موحدة إلى الصقالبة، وهم ولد صقلب بن نبطي ((36)).

ويعرفهم المسعودي بأنهم: هم من ولد يافث بن نوح وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة، فهم أجناس مختلفة فمنهم من ينقاد إلى دين النصرانية، ومنهم من لا كتاب له، ولا ينقاد إلى شريعة.

كما أن معنـى كلمة صقلبي فرنسي قديم يعنـي عبد أو رقيق، وهو المعنـى نفسه الذي استعمل في الأندلس فقد أطلق أولا على أسرى الحروب الذين كان يأسرهم الجرمان والإسكندنافيون ويبيعونهم للأندلس ((37))، ثم توسع الأندلسيون في استعمال هذا المعنـى وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية((38)).

وهؤلاء الصـقالبة كانوا يجلبون أطفالا، ويتعلمون اللغة العربية، ويدينون بالإسـلام ويختلطون بالشـعب الأندلسـي ويعيشـون الحياة الإسـلامية، إذ كانوا يربون تربية عسـكرية ويدربون على الخدمة في القصـور، والانخراط في سـلك الجندية ليكونوا جنودا في الحرس والجيش ((39)).

وظهور فئة أبنـاء الـصقالبة والتـي تربت في المجتمع الأندلسي كان له تأثير في ذوبان هذه الفئة وسـط طبقـات سكان الأندلس بعد أن شاركوا في حياته الاجتماعية والثقافية حتى أن أصولهم لم يعد يشار إليها((40)).

الفصل الثاني:

التدين الأندلسي نموذجا للتعايش الحضاري

منذ بدايات الفتح الإسلامي للأندلس، اتسمت معاملة المسلمين لغيرهم من أهل البلاد المفتوحة بالتسامح التام الذي أشاد به غير المسلمين، وكثير من المؤرخين الأوربيين.

يقول ستانلي لين بول: "ويجب ألَّا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خرَّبوها بصنوف الإرهاق والظلم كما فعل قُطعان المتوحشين قبلهم، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة، وعدل، وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين"((41)).

ويقول غوستاف لوبون: "واستطاع العرب أن يحوِّلوا إسبانية ماديًّا وثقافيًّا في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانية على هذين الأمرين؛ بل أثَّروا في أخلاق الناس أيضًا، فهم الذين عَلَّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يُعلِّموها، التسامحَ الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حِلْم عرب إسبانية نحو الأهلين المغلوبين مبلغًا كانوا يسمحون به لأساقفهم أن يَعقِدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني، الذي عُقد في سنة 782م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقِد في سنة 852 م، وتُعد كنائس النصارى الكثيرة التي بَنَوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم"((42)).

ونستشهد أيضا برأي مهم للمستشرق والمؤرخ الأمريكي سكوت، حيث يقول: "سمح المسلمون للنصراني المتعصب لدينه بمزاولة شعائره دون أدنى تدخل، بل أكثر من ذلك سمح للملحد أن يجهر بآرائه دون أن يخشى عاقبة ذلك، وسمحوا للأحبار والرهبان بأن يزاولوا أمور دينهم في سلام، وأن ما كتبه كتاب النصارى من قيام العرب باضطهاد النصارى، ووصفوهم بأفظع الأوصاف، كلها افتراءات ومبالغات لم تحدث، وما دفعهم لذلك تعصبهم الأعمى ضد المسلمين"((43)).

وفي ما يأتي استعراض لأهم مظاهر التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس:

المبحث الأول: التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس

المطلب الأول: التعايش مع النصارى في المجال الاجتماعي

اندفع المسلمون بشكل كبير نحو التسامح الديني والتعايش السلمي مع النصارى منذ الفتح، وذلك من خلال الاختلاط والاحتكاك المباشر، وتوجت علاقات الطرفين بقيام المصاهرات بينهما، وهو الأمر الذي أثرى الحياة الاجتماعية في الأندلس بشكل عام.

"ومن أمثلة ذلك زواج الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة أيله المعروفة عند الإسبان باسم Egilona أرملة رذريق Rodrigo آخر ملوك القوط، وقد تكنت بأم عاصم وأقامت معه في اشبيلية.

وهناك قصة الأميرة سارة حفيدة الملك القوطي غيطشه Witiza التي سافرت إلى دمشق وقابلت الخليفة هشام بن عبد الملك في شكاية لها ضد عمها أرطباس على ميراث أبيها. وهناك زوجها الخليفة مولاه القائد العربي عيسى بن مزاحم الذي عاد بها إلى الأندلس وأنجب منها سلالة كريمة من الأبناء والأحفاد، منهم المؤرخ المعروف أبو بكر محمد المعروف بابن القوطية (ت 267هـ) صاحب كتابي الأفعال، وتاريخ افتتاح الأندلس"((44)).

"لقد أصبح الزواج من إسبانيات تقليدا شائعا عند أهل الأندلس، أمراءهم وخلفاءهم وخاصتهم وعامتهم. ومن أمثلة ذلك زواج أمراء بني أمية في الأندلس من نساء البشكن والجلالقة ممن يقعن في أيديهم سبيا بسبب الحروب المتواصلة والغزوات المتتابعة، إلى حد

أن كثيرا من الباحثين المعاصرين يعتبرون البيت الأموي بيتا مولدا، وإن كان هؤلاء الأمراء–الذين هم في كثيـــر من الأحيان نتاج هذا الزواج المختلط– يعتزون بأصولهم العربية ويتغاضون عن أصولهم الإسبانية"((45)).

وبلغ عدد زوجات المسلمين من بنات الإسبان في بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية((46)).

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشأ على الإسلام وتعلم العربية واشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة منها: الجمال والذكاء والشجاعة.((47))

وقد ظهرت أيضا مظاهر الاندماج والتعايش في الاحتفالات، والأعياد، حيث كانت الأعياد في الأندلس كثيـــرة، وعلى رأسها أهم عيدين للمسلمين، وهما عيدي الفطر والأضحى، هذا علاوة على الأعياد التـــي استحدثت من كلا الطرفين، وكان الاحتفال بالمولد النبوي الشـــريف من أهم الأعياد الدينية التي تلقى اهتماما واســعا في الأندلس يحضـــرها الرجال والنســـاء والأطفال هذا عن الأعياد الدينية، أما ما يمكن أن نطلق عليه الأعياد الوطنية، والتي كان يشـــارك فيها كل أهل الأندلس مجتمعين من رجال ونســـاء، مســـلمين ونصارى، ومثال لذلك عيد العصير، وهو موسم جني محصول العنب، الذي يتم في جو من الغناء والمرح أيضا، وكانوا يرتدون في هذا اليوم أجمل وأبهى ثيابهم.((48))

وكان المسلمون والنصارى يحتفلون بالأعياد المسيحية، وبخاصة أن أعياد النصارى معروف وقتها مسبقا، فهـــي منتظمة طبقا للتقويم الميلادي، تأتي دائما في الوقت نفسه من العام، لها ميعاد ثابت، عكس الأعياد الإسلامية التـــي لا ترتبط بتوقيت معين من السنة، ومن أهم هذه الأعياد المسيحية التـــي كان يتشارك في الاحتفال بها جل الشعب الأندلسي، عيد الميلاد، أي مولد سيدنا عيسى عليه السلام، وخميس أبريل أو خميس العهد.((49))

ومن الأعياد القومية أيضـــا في الأندلس عيد العنصـــرة((50))، وكان موعد الاحتفال به في الأندلس في الرابع والعشـــرين من شـــهر يونيو، وطقوس الاحتفال كانت عبارة عن إشعال نار كبيرة، وإيقاد بعض الشموع، وكان المسلمون يذهبون لمشاهدة تلك المناظر، بل ومشاركة النصارى في احتفالاتهم((51)).

ويعلل مشـاركة المسـلمين للنصـارى في أعيادهم، بسـبب حسـن الجوار، ومخالطتهم للنصـارى في التجارة، وعلاقات المودة والتسـامح التي سادت بين الطرفين.((52))

وإذا ما انتقلنا إلى نقطة أخرى، وهي النقطة الخاصـــة بالزي، وهو يمثل جانبا مهما في إظهار الفروق بين الطبقات في الشـــعب الواحد إلى يومنا هذا، والحقيقة لم يؤثر عن الأندلســـيين، أنهم فرقوا في الزي بين فئات المجتمع، كما حدث في العديد من البلدان الإسلامية، وبخاصة في عصري الإمارة والخلافة، حيث كان الحكام في بعض البلدان الإسلامية يلجؤون أحيانا إلى تمييـــز أهل الذمة على وجه التحديد من النصارى واليهود بلباس معين((53)).

أما في الأندلس فلم تظهر هذه العادة، فقد كان التداخل الحضاري بين كلا الجانبين واضحا في استخدام الأشياء نفسها.

يقول المقري: "وأما زيّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية، في حضرة السلطان في ذلك الأوان، وقد خطب له بالملك في تلك الجهة، وهو حاسر الرأس، وشيبه قد غلب على سواد شعره. وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب، وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده، وكثيـــــراً ما يتزيّ ســـلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم"((54)).

المطلب الثاني: التعايش مع النصارى في المجال الإداري

أما فيما يخص التنظيمات الإدارية للطوائف المســـيحية فقد تركت الحرية للمســـيحيين بتنظيم شـــؤونهم المدنية والدينية كيفما شاءوا((55)). فقد كانت لهم إدارة محلية يختارونها بأنفسهم ويديرها رجال منهم أطلق على كل واحد منهم لفظ " قومس" وهو لقب يقوم حامله بمهمة جليلة تجاه طائفته، وكان هؤلاء الرؤساء يحاطون بمظاهر التبجيل والاحتـرام، وكانوا مسؤولين أمام المسلمين عن كل ما يتصل برعاياهم النصارى فيجمعون منهم الضرائب ويفصلون فيما يحدث بينهم من نزاعات((56)).

وهذا ما أكده لســـان الدين بن الخطيب بقوله: "اســـتمرّ ســـكناهم في غمار من الروم؛ يعالجون فلاحة الأرض، وعمران القرى، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حنكة ودهاء ومداراة، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم".((57))

أما فيما يخص الجانب القضـائي فقد كان للنصـارى قضـاء خاص بهم بعيد تمام البعد عن تدخل الدولة في شـؤونه يرأسـه قاض يعرف باسم "قاضي النصارى" مهمته النظر في أمور الجنايات والنزاعات الخاصة بهم.((58))

المطلب الثالث: التعايش مع النصارى في المجال العلمي

عمل المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس على خلق بيئة علمية ثقافية متسامحة تحتـــرم الآخر كيفما كان، وكان لهذا أثره الكبير في اللقاء العلمي بين المسلمين وغير المسلمين في الأندلس، قل ما نجد له مثيلا في بلد آخر من بلدان الإسلام((59)).

وكانت طرق التواصل مع النصارى عبر محبي العلم والمعرفة والثقافة العربية الإسلامية، وفي مقدمتهم الراهب الفرنسي "جربودت دي أورباك" الذي عنـــي بدراسة العلوم الرياضية وبرع فيها، وأصبح فيما بعد بابا روما باسم البابا سيلفستر الثاني، وله دور بارز في نشر علوم العرب في أوروبا((60)).

واهتم رهبان دير(سانتا ماريا دير يبول) بترجمة أعداد كبيرة من المؤلفات العلمية العربية، وأدى وجود مدارس للترجمة في الأندلس إلى اجتذاب مجموعة من رجال الفكر المنتمين إلى الأديان السـماوية في الأندلس، وتعايشـوا جنبا إلى جنب مع المسـلمين خلال أعمال الترجمة، وحتى اللغة الإسبانية استفادت من الاستعارات اللغوية من اللغة العربية((61)).

لقد برع بعض النصارى في مجالات مهمة كالترجمة والتأليف في اللغة العربية ومنهم قسطنطين الأفريقي، نزيل قرطبة المتوفى سنة 480هـ، والذي يعد من أقدم المترجمين للمؤلفات العربية ولاسيما الطبية منها.

وقد توجه النصارى لدراسة اللغة العربية وعلومها وآدابها لرغبة في تبوّءِ المناصب الإدارية العليا في الدولة العربية في الأندلس وهذا لا يمكن بلوغه إلا بتعلم اللغة العربية، وقد أشارت الروايات التاريخية إلى تبوء بعض النصارى المناصب الإدارية ولاسيما الوزارة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر يحيى بن إسحاق الذي استوزر في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر((62)).

وفضلا عن ذلك فإن ما حازته المراكز العلمية والثقافيـة فـي الأندلس مـن شـهرة علميـة وثقافية مرموقة، جعلها تستقطب وتجذب كثير من العقول المسيحية الوافدة من أوروبا ومنها الحاضرة قرطبة التي كانت محطة علمية لكثير من النصارى((63)).

ولـم يقتصر اهتمام النصارى في المجال التأليفي والترجمة إنما امتد ليشـمل مجالات مهمة في الأدب والشـعر، إذ ذكـرت الروايـات التاريخية أن بعض النصارى قد نشطوا في دراسة الشعر العربي ولاسيما الغنائي منه على وجه الخصوص وبمرور الوقت نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون في الأناشيد الدينية وأعياد الميلاد، وقد أشارت الروايات أيضا إلى وجود تأثير كبير للموشح الأندلسي في ظهور هذا الضرب من الشعر((64)).

المبحث الثاني: التعايش بين المسلمين واليهود في الأندلس

المطلب الأول: التعايش مع اليهود في المجال الاجتماعي

عاش اليهود داخل المجتمع الإسلامي في الأندلس أكثـــر من ثمانية قرون، فتأثروا بعادات المسلمين وتقاليدهم. لكنّ عيشهم في تجمعات أو أحياء خاصة بهم، والسماح لهم بممارسة عاداتهم وتقاليدهم وشعائرهم الدينية داخلها، مكنهم من المحافظة على كثير من العادات والتقاليد اليهودية.((65))

يمكن القول إن تفاعل الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية أمر لا نظير له في أية حضارة أخرى، لأنها أعطت لهم وسيلة الحياة ومنهج النقد وفهم التطورات الإنسانية خلال العصور الوسطى، فخرجوا من دوائرهم الضيقة إلى عالم أرحب.((66))

فالنصوص التاريخية تشير إلى تعايش وتفاعل كبير بين المسلمين واليهود في الأندلس. كالنازلة التـــي وردت في فتاوى ابن رشد أن أحد اليهود سكن بجوار مسلم وشربهما معا من بئر واحدة،((67))كما أوردت لنا الأمثلة العامة ما يكشف عن تعامل اليهود مع المسلمين يوميا، وهذا ما خلق التواصل والاندماج فيما بينهم، ولعل ما يؤكد هذا الاندماج في المجال التجاري أن "صاحب المعيار" أورد فتوى تعالج شكوى من باعة جوالين يهود تتحدث خاصة عن سهولة وصولهم إلى النساء في البيوت لبيعهن البضائع((68))، وقد دلت هذه الشكوى على تحرك اليهود في الوسط الاجتماعي.

كما تُرِكَ يهود الأندلس يتسمَّوْن بأسماء عربية، فتسمى كثير منهم بأسماء مشتركة وردت في كلٍّ من التوراة والقرآن، لكنهم تقيَّدوا بالنطق العربي للاسم، فتسموا بموسى، بدل موشي، وإبراهيم، بدل أبراهام، وهكذا، كما تسموا بأسماء عربية خالصة، حتى في معناها مثل سَهْل، وبسّام، ويعيش، وعبد الصمد، ونسيم، كما أطلق الكثير من يهود الأندلس على بناتهم أسماء عربية((69)).

المطلب الثاني: التعايش مع اليهود في المجال الإداري

فيما يخص المجال الإداري لدى الطائفة اليهودية فإن لليهود الحقوق نفسها التي كانت للنصارى في انتخاب رؤسائهم الذين يراعون فيها أقدرهم وأعرفهم بشؤون مذهبهم.((70))

ومثلما قام الحكام الأمويون بتعيين القومس ليكون رئيساً للطائفة النصرانية، قاموا كذلك بإيجاد منصب لقائد الطائفة اليهودية. وكان لقب صاحب هذا المنصب هو"ناسي" (NASI)، كان المنصب الثاني الذي يلي منصب الناسي في الأهمية هو منصب كبير الأحبار أو الحاخام الأكبر كما سُمّي لاحقاً، وبعد منصب الحبر الأعظم، يأتي منصب القاضي، أو الديَّان كما يسمّيه اليهود، وكان الناسي هو الذي يعيّن القضاة اليهود في المدن الأندلسية، ولكنَّ هذا النظام تغيَّـــر فيما بعد، حيث تُظهر فتاوى أحبار اليهود منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أنَّ القضاة صاروا ينتخبون انتخاباً.((71))

ويتم تقاضي الطائفة اليهودية أمام محاكمهم الخاصة فيما يخص نزاعاتهم وقضاياهم التـي ليس فيها طرف غيـر يهودي دون تدخل إدارة الدولة في شؤونها، ولقضائهم كامل الحرية والصلاحيات في تقدير وتطبيق ما يصدرونه من أحكام وعقوبات على بني ملتهم ((72)).

وكانت الخلافات التـي تقع بين مسلم ويهودي في الأندلس تحال إلى المحاكم الإسلامية. أما قضايا اليهود فيما بينهم، فيترك الأمرُ فيها للمتخاصمين، فإمَّا أن يذهبوا إلى المحاكم اليهودية، أو يتوجهوا إلى المحاكم الإسلامية. ((73))

"ومن المناصب الإدارية داخل الطائفة اليهودية، منصب الحزان، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبـر، ويعظهم. وكان لكلِّ كنيس يهودي حزان خاص، ومن مهماته أيضاً الإنشاد وإمامة المصلين في المناسبات الدينية. واشترط أحبار اليهود أن يكون الحزان متعلِّماً، صاحب سمعة جيِّدة، وصوت جميل، ومجيداً للأناشيد العربية.

ومن التنظيمات الإدارية المهمة للطوائف اليهودية في الأندلس، وجود مجلس في كلِّ مدينة توجد فيها طائفة يهودية، يشـــرف على إدارة شؤون الطائفة في المدينة، ويتكوَّن هذا المجلس من سبعة أشخاص، وكان اليهود يسمونهم "الشيوخ"، وهم يصلون إلى هذا المجلس بالانتخاب، ومدة بقاء هذا المجلس سنة واحدة، تحسب بالتقويم اليهودي، وقد أخذ يهود الأندلس هذا التنظيم الإداري عن الرومان الذين اعتمدوا في إدارة مدنهم على مجلسٍ منتخب من أبناء تلك المدن، وقد مارس اليهود هذا التنظيم منذ عهد الحكم الروماني لإسبانيا، وتمسكوا به في عهد القوط، ولم يتركوه إلاَّ بعد أن اشتدَّ عليهم اضطهاد القوط الكاثوليك، ثم عادوا إليه طوال مدة الحكم الإسلامي للأندلس. ومن بين مهمات مجلس الطائفة أو الشيوخ، أن يُشرّع مجموعة من القوانين، ويطالب اليهود باحترامها والالتـــزام بها، وكان أحبار اليهود يوصون بطاعة هذه القوانين باعتبارها قائمة على الشريعة اليهودية، وقد سُمِّيت مجموعة القوانين التـي يصدرها المجلس (TAKKANOT)، وهي كلمة عبرية، كما سميت أيضاً (الضوابط)"((74)).

المطلب الثالث: التعايش مع اليهود في المجال العلمي

أصبحت بلاد الأندلس بعد استقرارها من بين أهم المراكز العلمية والفكرية في الدولة الإسلامية، إذ استقطبت مدارسها ومنتدياتها العلمية علماء كبار من مختلف المناطق والمدن والأقاليم، ومما ساعد في ذلك توافر البيئة العلمية والثقافية، فضلا عن التشجيع المنقطع النظير الذي وجده العلماء الوافدون إليها من قبل الخلفاء والأمراء، مما جعلها تسمو في مجال المعرفة.

ومما لاشك فيه، فإن تسليط الضوء على صور من اللقاء العلمي بين المسلمين وغير المسلمين في الأندلس، وإسهاماتهم في الحياة العلمية والفكرية، يؤشر بوضوح إلى تحديد مواطن التأثير العربي والإسلامي، والمـــدى الواسع لهذا التأثير في مختلف فئات المجتمع الأندلسي، فضلا عن أنه مؤشر مهم للتأثير المتبادل بين الشعوب، وهذا في الواقع يدعو إلى إيجاد بيئة علمية وثقافية متعايشة ومتسامحة كالتي كانت في بلاد الأندلس بعد الفتح الإسلامي لها، والتي ظلت على صلتها العميقة ببيئتها المشرقية، وعلى اعتدالها فيما يتعلق باحترام الآخر كيفما كان.

أما عن اليهود فقد عملوا على جعل مدينة قرطبة مركزا علميا وفكريا للدراسات اليهودية((75))، وجل العلماء اليهود قد تخصصوا في علوم اللغة وآدابها حتى أن بعضهم صار حجة في بعض مواضيعها، ولعل مروان بن جناح اليهودي القرطبي المتوفى سنة441هـ، يقف في مقدمتهم وقد كرس جهده لدراسة ظواهر اللغة العبرية وكانت نتيجة بحثه كتاب "اللمع" وأضاف إليه كتابا آخر هو "معجم للعهد القديم" سماه "الأصول" والكتابان يتممان بعضهما لفهم اللغة العبرية((76)).

ونذكر كذلك سليمان بن جبرول اليهودي المتوفى سنة 442هـ، فقد تخصص في ميدانين خصيبين هما اللغة والشعر((77)).

ومن المؤلفين اليهود الذين ساروا على نهج المؤلفين العرب والمسلمين موسى بن يعقوب المتوفى سنة 459هـ، صاحب كتاب "المحاضرة والمذاكرة"، ولم تكن الجوانب الاجتماعية بعيدة عن مؤلفه، إذ سلك فيه نهج التنوخي، علي بن محمد المتوفى سنة 384هـ، في كتابه "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"، من ناحية المعالجة التاريخية والاجتماعية((78)).

ويعكس النتاج العلمي والثقافي لليهود والذي فاق نتاج النصارى كماً ونوعاً قدرتهم على التعلم بسرعة والتكيف مع الحياة العلمية المبدعة السائدة في بلاد الأندلس ولا سيما قرطبة، ومما يدل على ذلك الترجمات الكثيرة لعدد غير قليل من المؤلفات العربية من دون تغير في محتواها إلى لغتهم العبرية، وهذه ولا شك عملية غاية في الدقة والصعوبة((79)).

خـاتمة

نعلم أن معرفة التدين الأندلسي سيظل في حاجة إلى مساحة أكبر من هذا البحث وسيجعل من المستحيل أن نستوعب كل ما يمكن أن يكتب فيه في مثل هذه المساحة المرصودة له في هذه الإسهامة، لذا فسأحاول قدر المستطاع أن أشير إلى ما يمكن استفادته من هذه التجربة التاريخية:

1. معرفة التدين الأندلسي يساعدنا على إبداع نموذج لتعايش المسلمين اليوم في العالم المعاصر، ويفيدنا في خلق عقلية مشاركة تتفاعل مع الآخرين وتتعاون معهم من أجل بناء حضارة إنسانية.
2. المسلمون في الأندلس كانت عندهم قدرة على معرفة الواقع الذي يعيشون فيه وعلى التأقلم معه.
3. علماء الأندلس دخلوا في حوار مع المجتمعات التي يعيشون فيها ومع مكوناتها الدينية، حيث صنفوا وترجموا كتبا عديدة في هذا المجال، ودخلوا في مناظرات وسجالات علمية. وسيكون من المهم اليوم الاهتمام العلمي بالأديان الأخرى ويكون للمسلمين إسهامات في حوار الأديان.
4. الفقيه الأندلسي كانت له متابعة وإحاطة بكل الأمور فيما يتعلق بالتيارات والمعتقدات وغيرهما، والفقيه المعاصر يجب أن ينتهج منهج فقهائنا بالأندلس في هذا المجال، علما بأن الفقيه المعاصر يتجاوز الفقيه الأندلسي في الإمكانيات المتاحة اليوم التي تتيح له الاطلاع على أكبر قدر من المعلومات في وقت وجيز، ونتائج أبحاثه تعرض وتنتشر في العالم في وقت وجيز كذلك، عبر استخدام الوسائل الحديثة، وهذا يحمله مسؤولية أخرى تجاه ما سيخرجه.
5. وجود المسلمين بأعداد كبيرة في العالم الغربي يمكن أن يشكل أساساً للتفاهم والتعاون بين الإسلام والغرب وفرصة للتفاعل وتبادل الأفكار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كما حدث في الأندلس.

أسأل الله العظيم أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عن سيئاتنا إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما.

الهوامش:

[1] معجم البلدان، 262/1.

[2] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 1/ 125

[3] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، 2/ 2-3

[4] صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص: 2

[5] التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمان علي حجي، ص: 97

6 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،128/1، 129

[7] الروض المعطار في خبر الأقطار، ص:33

[8] تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، وعبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مصلوب، ص: 23.

[9] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 4/ 35

[10] يشير إلى حديث أورده البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته وجعلتْ تُفْلي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلتُ: وما يضحككَ يا رسولَ الله؟ قال: «ناسٌ من أمّتي عرضوا عليَّ، غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَج هذا البحر، ملوكًا على الأسرّةِ، أو مثل الملوك على الأسرة». قالت: فقلتُ: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلى الله

عليه وسلم ثمّ وضع رأسهُ، ثمّ استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أمّتي عرضوا عليّ، غزاة في سبيل الله». كما قال في الأوّل. قالتْ: فقلت: يا رسـولَ الله ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم. قال: «أنتِ من الأوّلين». فركبت البحرَ في زمان معاوية بن أبي سـفيان، فصـرعتْ عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت (كتاب الاستئذان، باب من زار قوما فقام عندهم، رقم الحديث: 2789.)

[11] رسائل ابن حزم الأندلسي، 173/2.

[12] دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، 1/ 39

[13] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2/ 25

[14] نفس المصدر، 2/ 30-31

[15] تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية القرطبي، ص: 43

[16] حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيت، ص: 281-282

[17] الأندلس من الفتح إلى السقوط، 2/ 5

[18] ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2/ 6

[19] نفسه، 2/ 274

[20] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4/ 115-121

[21] الكامل في التاريخ، 188/9، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،4/ 98

[22] اعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص: 227.

[23] فجر الأندلس، حسين مؤنس، ص: 429-430

[24] ظهر الإسلام، ص: 472

[25] حضارة العرب، ص: 281

[26] التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، حسن أحمد النوش، ص: 40

[27] قصة العرب في اسبانيا، ستانلي لني بول، ص 48-49.

[28] مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، إبراهيم القادري بوتشيش، ص: 70

[29] الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، 2/ 971

[30] في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص 52

[31] عامة قرطبة في عصر الخلافة، أحمد الطاهري، ص:20

[32] المسألة اليهودية، عبد الله حسين، ص: 108

[33] البيان المغرب، 3/ 264

[34] – الروض المعطار في خبر الأقطار، ص: 45

[35] لسان العرب، 7 /378.

[36] لب اللباب في تحرير الأنساب، ص: 73.

[37] مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ابراهيم قادري بودشيش، ص:45.

[38] ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ليث سعود جاسم، ص: 58

[39] تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، ص: 205

[40] الصقالبة في أسبانيا: أصلهم ونشأتهم وعلاقاتهم بحركة الشعوبية، العبادي، ص30.

[41] قصة العرب في اسبانيا، ص 48-49.

[42] حضارة العرب، ص: 290 -291

[43] Samuel Parsons Scott : History Of The Moorish Empire in Europe, , Philadelphia, 1904, P 264 Volume I

[44] مقال بعنوان: صور من التسامح الديني والتعاون المشترك، الدكتور أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس والعشرون، مدريد 1993- 1994، ص: 09

[45] فجر الأندلس، ص: 376 وما يليها.

[46] الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92-422هـ)، خالد الجبالي، ص:42.

[47] المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138هـ-422م/755هـ-1030م)، حسين دويدار، ص:74

[48] الأعياد في مملكة غرناطة، أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس عشر، 1970م، ص 140 وما يليها.

[49] الحياة الاجتماعية في الأندلس، في عصر دولتي المرابطين والموحدين، 484 - 620 هـــ / 1091 - 1223 م، سعيد سيد أحمد أبو زيد، ص 185.

[50] تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل جنثالث بالنثيا، ص 21.

[51] مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن على بن الحسين بن علي المسعودي، ص 212.

[52] الدر المنظم في مولد النبي المعظم، العزفي، أبو القاسم محمد بن أبي العباس بن أحمد بن محمد، نشر وتحقيق المستشرق الإسباني: فرناندو دي لا جرانخا، مجلة الأندلس، 1969م، ص: 21.

[53] مقال: المسلمون والنصارى نموذجا للتعايش السلمي في الأندلس، راوية عبد الحميد شافع، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، المجلد 3، العدد 9، شتاء 2018، 358-359.

[54] نفح الطيب، 1/222-223

[55] التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص: 41

[56] نفس المرجع والصفحة.

[57] الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/21

[58] في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، عبد العزيز سالم، ص 176

[59] فجر الأندلس، المقدمة: هـ

[60] أثر الحضارة العربية في الأندلس، السامرائي، ص: 474

[61] الإبداع الحضاري للمسلمين في الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة، مجدي خليل محمد البردويل، نسخة pdf، رسالة ماجستير، سنة 2014، غير مطبوعة.

[62] العلوم الفيزيائية والطبيعية في الأندلس، فينيه اخوان، ترجمة أكرم ذنون، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي، 2/1297

[63] قصة العرب في اسبانيا، استانلي، لين بول، ترجمة عفيف البعلبكي، ص:134

[64] علاقة الإمارة الأموية في الأندلس مع الممالك النصرانية في إسبانيا، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين،2001م، ص:145

[65] اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، خالد يونس الخالدي، ص: 269

[66] اليهود في المغرب الإسلامي، كواتي مسعود، ص:295.

[67] ينظر: فتاوى ابن رشد، 1/ 605.

[68] ينظر: المعيار، 7/53.

[69] اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، خالد يونس الخالدي، ص: 272-273

[70] الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، عبد العزيز بنعبد الله، ص: 121

[71] اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، خالد يونس الخالدي، ص: 336- 339- 345

[72] المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إبراهيم حركات، ص: 146

[73] تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، أبو الحسن الجذامي، ص: 56-57.

[74] اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، ص: 349- 350

[75] اليهود في الاندلس، محمد بحر عبد المجيد، ص:23

[76] عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص: 457

[77] يهود الأندلس والمغرب، الزعفراني حاييم، ترجمة، أحمد شحلان، ص: 151

[78] التراث العبري اليهودي في المغرب الإسلامي، أحمد شحلان ، ص:64

[79] تراث الاسلام، جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة: حسين مؤنس، 217/2.